REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ عِلْمِيَّة مُحَكَّمَة تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع	رقم الإيداع بدار الكتب
2401-1687	99/9440
الترقيم الألكتروني	الترقيم الدولي
3354-2735	977-5366-11-9

موقع المجلة على بنك المعرفة https://jejh.journals.ekb.eg/

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢١م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجلة التاريخية المصرية

REVUE EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES

تُصْدرهُا

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات ـ الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

المجلد الثالث والخمسون

القاهرة

٢٠١٩م

هَيْئَة التَّحْرِير

أ.د. أيمن فؤاد سيد ـ رئيس التحرير
أ.د. أحمد زكريَّا الشَّلْق
أ.د. أحمد الشِّرْبِيني السَّيِّد
أ.د. جمال مُعَوَّض شَقْرَة
أ.د. خَلَف عبد العظيم الميري
د. محمَّد فوزي رَحِيل ـ سكرتير التحرير

الهَيْئَة الاسْتِشَارِيَّة الدَّوْلِيَّة للمَجَلَّة

أ. د. إبراهيم القَادِري بوتْشِيش (المَغْرِب)
أ. د. أحمد رَجَب محمد علي (مصر)
أ. د. إسْحَاق تاوَضْرُوس عِبِيد (مصر)
أ.د. أشْرَف محمَّد مُؤْنِس (مصر)
أ. د. تُرْكِي بن فَهْد آل سَعُود (السَّعُودِيَّة)
أ. د. جولييت رَسِّي (لُبْنَان)
أ. د. حسين سيِّد عبد الله مُراد (مصر)
أ. د. السَّيِّد فِلِيفِل (مصر)
أ. د. عاصِم أحمَّد الدِّسُوقي (مصر)
أ. د. عبد الكَرِيم مَدُون (المَغْرِب)
أ. د. عبد الله بن محمَّد المُنِيف (السَّعُودِيَّة)
أ. د. عَفَاف سَيِّد صَبْرَة (مصر)
أ. د. عَلَاء الدِّين عبد المُحْسِن شَاهِين (مصر)
أ. د. محمَّد م. الأُرْنَاؤوط (كوسوفو)
أ. د. محمَّد صَابِر عَرَب (مصر)
أ. د. محمَّد السَّيِّد عبد الغَنِي (مصر)
أ. د. محمَّد عِيسَى الحَرِيرِي (مصر)
أ. د. محمُود إسْماعِيل عبد الرَّازِق (مصر)
أ. د. مُنِيرَة شَابُوتُو رِمَادِي (تُونِس)
Prof. Dr. Sylvie DENOIX (France)
Prof. Dr. Albrecht FUESS (Germany)
Prof. Dr. Nicolas MICHEL (France)
Prof. Dr. Tetsuya OHTOSHI (Japan)
Prof. Dr. Michel TUCHSCHERER (France)

الإخراج الفني وتصميم الغلاف : محمد أشرف عبد المقصود

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

المحتـويات

الصفحة

رمزية معبد الأقصر
محمد محمود قاسم ٧-٤٠
مشهد الملاكين المحلقين على المنحوتات الحجرية بدير الأنبا أبوللو بباويط
نورهان عادل السيد عبد العزيز ٤١-٦٥
عوامل ازدهار الأسواق في مكة المكرمة خلال القرنين الثاني عشر والثالث
عشر الهجريين/ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين
إبراهيم جلال أحمد ٦٧-٩٩
في النقد الاجتماعي عند الفقيه القاضي أبى يحيى بن عاصم وكتابه جنة الرضا
«جوانب من السلبيات الاجتماعية في الأندلس في عصر سيادة غرناطة»
«٧٩٤ - ٨٥٧هـ/١٣٩١ - ١٤٥٣م»
عادل يحيى عبد المنعم ١٠١-١٣٩
العمانيون وانتشار الإسلام في أوغندا في القرن التاسع عشر
إبراهيم عبد المجيد محمد حمد ١٤١-١٧٢
التطور الاقتصادي في بروسيا من سنة (١٨١٥ - ١٨٧٠م)
سُعاد محمد عمر الجفال ١٧٣-٢٠٢

The Status of Byzantine studies in Egypt (1950s-1980s)
Abdelaziz Ramadan 5-50

المجلة التاريخية المصرية ٥٣ (٢٠١٩) ١٠١ــ١٣٩

في النقد الاجتماعي
عند الفقيه القاضي أبى يحيى بن عاصم
وكتابه جنة الرضا
«جوانب من السلبيات الاجتماعية في الأندلس في عصر سيادة غرناطة»
«٧٩٤–٨٥٧هـ/١٣٩١–١٤٥٣م»

عادل يحيى عبد المنعم

ملخص

يتناول البحث الحديث عن سلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة؛ آخر عصور المسلمين بالأندلس، وقد بدأت الدراسة بالحديث عن الفقيه القاضى أبى يحيى بن عاصم المتوفى بغرناطة سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م».

كما قمت بالتعريف بكتابه «جنة الرضا فى التسليم لِما قدر الله وقضى»؛ وهو ما يندرج تحت ما يسمى بـ«أدب المحن والابتلاءات»، مشيرًا إلى أهمية الكتاب وثرائه ، وتعدد معارف مؤلفه ابن عاصم.

والبحث يشكل قراءة واعية للماضى؛ تلك القراءة التى من شأنها استخلاص العبرة والعظة، والاستفادة من دروس الماضى فى تجنب عوامل الضعف والسقوط، عسى الله تعالى أن يرزقنا مستقبلًا أفضل يولد من رحم الماضى.

Abstract

The research shows the draubacks of the Andalus Society in the era of Granada's domination; the Last age of Muslims in Andalus. I strated my study by talking about theologian Al – qadi "Abu yehia Ibn Assem" who died in Granada in 857 H /1453 A.D.

I also introduced his book "Janat Al-Reda fi A1- Tasleem Lima Qaddar Allah wa Qada" or "the paradise of submission to Allah's destiny" ; this is what is called "the fiction of plight and misfortune". the importance of the book, its wealth and the auther omniscience are pointed out .

The research represents a conscious reading of the past to avoid the elements of weakness and downfall. we beseech God Almighty to grant us amuch better future that is begot from the wombe the past. May Allah grant us, support and righteousness .

❋

❋ ❋

إشكالية الموضوع وأهميته والدراسات السابقة عليه

تناولت من قبل – في دراستي للماجستير جوانب من سلبيات المجتمع الأندلسي بدءًا من ظهور الكتابة التاريخية حتى سقوط غرناطة «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م»؛ وذلك من خلال دراسة بعنوان النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، وقد قصرت الدراسة على السلبيات فقط، لاستخلاص العبرة والعظة، رغم أن المعنى اللغوى لكلمة نقد يعنى إبراز السلبيات والإيجابيات على حد سواء[١].

---

(١) يذكر العلامة اللغوى ابن منظور فى بيان معنى كلمة نقد ما يشير إلى أنه يعنى تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها؛ ويقول فى هذا الشأن: «ونقدت الدراهم وانتقدتها» والنقد بها المعنى يشير إلى معان مختلفة من=

وعلى الرغم من أننى تحدثت عن الفقيه القاضى أبى يحيى بن عاصم المولود فى غرناطة فيما بين سنة «٧٩٤ - ٧٩٩هـ/ ١٣٩١ – ١٣٩٦م» والمتوفى بها سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م»(١)؛ إلا أننى رأيت الحديث من جديد عن ابن عاصم وكتابة جنة الرضا، استنادا إلى ماجاء بشأن أقسام التأليف عن شيء ناقص يتممه الباحث(٢)، وأن المحاولة الأولى ربما كانت ناقصة، فأردت أن أتممها بدراسة مستقلة عن الرجل وكتابه، بعد أن تناولته مع ما يقرب من ستين شخصية من المؤرخين والكتاب الأندلسيين؛ ويأتى هذا إدراكا منى بأهمية وثراء كتاب «جنة الرضا» وحاجته إلى أن يسلط الضوء عليه بالوصف والتحليل من الباحثين، هذا فضلا على تعدد ومعارف ابن عاصم ديننا وتاريخيا وأدبيا وثقافيا، بما يشير إلى وجود مادة علمية وتاريخية يمكن صياغتها بشكل أفضل من ذى قبل، آملا ألا يفت ذلك من أصالة البحث.

وفى هذا ما يعنى أن بحثى هذا يتناول جوانب وسلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة من خلال نقد الفقيه القاضى ابن عاصم، الذى أزعم أنه كان مدركا لما ينتقده، ولما يضع عليه يده من سلبيات مجتمعه، وأن استنطاق بعض نصوصه التاريخية من خلال كاتب هذه الكلمات لا يلغى وعى الرجل بما كان فى مجتمعه من سلبيات وخصائص، كان ينتقدها هو بنفسه، ويشعر بها ويتألم لوجودها.

أما عن الدراسات السابقة عن ابن عاصم وكتابه، فتكفى الإشارة هنا إلى مقدمة

=الفحص والتمييز وطرح الزائف وذكر السلبيات والإيجابيات على حد سواء. انظر: ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى المتوفى ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، أعده: يوسف خياط، بيروت – دار لسان العرب بدون تاريخ، ٣: ٧٠٠.

(١) استندت فى هذا على ما جاء فى مقدمة التحقيق. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ط١ دار البشير، عمان ١٩٨٩، ١: ٣٧؛ وقد قمت بتحديد فترة البحث الزمنية استنادًا إلى ما جاء فى مقدمة التحقيق.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٧٦، ٥١ وهو مما جاء من أقوال للمؤرخ التركى حاجى خليفة.

تحقيق كتابه جنة الرضا على يد أ. د. صلاح جرار، ومنها الكفاية والغناء عن بنى عاصم عامة، كما كان لنفر من المستشرقين الأسبان من أمثال أ. سيكودى لوثينا دورة فى التعريف ببعض مآثر أسرة بن عاصم، على نحو ما جاء أيضا فى مقدمة تحقيق كتاب جنة الرضا لصاحبه أ. د صلاح جرار(١).

ولعل أقدم الإشارات التاريخية عن كتابه جنة الرضا هو ما أورده أ. عنان – رحمه الله – أن الكتاب بمثابة رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة....(٢)، وهو ما سوف يتم مناقشته فى متن البحث تفصيلًا.

أما عن الحديث عن سلبيات المجتمع الأندلسى؛ فمن المرجح أنها جاءت عرضًا فى كثير من الكتابات التاريخية إن لم يكن فى جميعها، بيد أن هذه الكتابات لم تستخدم مصطلح «النقد الاجتماعى» وأفضى إلى اجتهادى بأن المصطلح اقتصر استخدامه على دراسات أدبية ذكرت أمثلة منها فى دراستى المشار إليها آنفا(٣).

---

(١) انظر ما جاء فى مقدمة تحقيق جنة الرضا عن بنى عاصم، ١:٣٨ – ٤٤.

(٢) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط ٤ القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٨٧، ٤: ٤٨٩.

(٣) سبق لى الإشارة إلى أننى لم أوفق فى العثور على كتابات تاريخية استخدمت مصطلح «النقد الاجتماعى». وكل ما أفضى إلى البحث به هو كتابات أدبية تعرضت لموضوعات اعتمدت على النقد الاجتماعى مثل كتاب «نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام للمويلحى» وهو من تأليف الأستاذ الدكتور/ أحمد إبراهيم الهوارى، وكتاب «النقد الاجتماعى فى آثار أبى العلاء المعرى» لصاحبه د. يسرى محمد سلامة، وهناك نفر من علماء الاجتماع يشير إلى أن «النقد الاجتماعى» يرتبط بالمشكلات المجتمعية الجوهرية والعامة، وأنه يعتمد على الاستغراق فى مشكلات المجتمع، وما يسمى هنا فى نظرية علم الاجتماع بالمشكلات المجتمعية يمكن أن يعبر عنه الباحثون فى التاريخ – اجتهادًا – بأنه سلبيات المجتمع على امتداد عصوره التاريخية. انظر. عبد الباسط عبد المعطى: اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، الكويت – عالم المعرفة، الكويت أغسطس ١٩٨١ م، ٣٩. ضمن الفصل الأول فى حديثه بعنوان: «النقد الاجتماعى والوظائف النوعية لنظرية علم الاجتماع»؛ وانظر أيضا لصاحب البحث: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين (ق ٣ – ٩هـ/ ٩ – ١٥م) رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الزقازيق ١٩٩٦ صفحات رقم ب، ج ضمن مقدمة الرسالة في بيان معنى النقد الاجتماعى؛ وقد تفضلت الهيئة المصرية العامة للكتاب –مشكورة – بنشرها فى كتاب يحمل نفس العنوان، ط١، ٢٠١٨.

وفى ختام هذا التقديم آمل أن يكون بحثى هذا قراءة واعية للماضى، تلك القراءة التى من شأنها تحقق العبرة والعظة والحكمة، كما أن فى تسليط الضوء على فترات الضعف والسقوط وتعدد السلبيات مايعين على تجنب مثل هذه الجوانب فى حياتنا المعاصرة، تماما كمن يقوم بالبحث فى أسباب الخلافات بين الدول وأسباب سقوطها فى الماضى، فمن هنا – ومن هنا فقط – يمكن أن يولد مستقبل أفضل من رحم الماضى.. وعلى الله قصد السبيل وهو سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

التعريف بابن عاصم ومؤلفاته، وعهد سلطانه الأيسر

لعله من المفيد هنا أن اعتمد فى ترجمة ابن عاصم على ما قاله المقرى فى نفحه؛ مشيرًا إلى أن أهل الأندلس كانوا يسمونه بابن الخطيب الثانى، ويعرف به قائلًا إنه:

«هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم، القيسى الأندلسى، الغرناطى، قاضى الجماعة بها....».

ويضيف المقرى بشأنه أيضا أنه من أكابر فقهاء وعلماء ورؤساء الأندلس، وأنه أخذ عن الإمام المحقق أبى الحسن بن سمعت، والإمام القاضى أبى القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبى عبدالله المنثورى، والإمام أبى عبدالله البيانى... وغيرهم، وأنه تولى القضاء سنة «٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م»[(١)].

ويذكر المقرى نقولات بعض العلماء عن ابن عاصم، ومنها وصف ابن فرج السبتى لابن عاصم أنه: «الأستاذ العالم الصدر المفتى القاضى رئيس الكُتَّاب، ومعدن

---

(١) المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى المتوفى ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحقيق: يوسف البقاعى، بيروت – دار الفكر ١٩٨٦، ٨: ٢٩٠ – ٢٩١.

السماحة، ومنبع الآداب... ويمضى المقرى فى ذكر نماذج من نثره، وشعره، وإنشائه، ويفيض فى ذكر ظهير تولية القضاء، مُختتمًا هذا كله بأن ابن عاصم كان يلقب فى الأندلس بابن الخطيب الثانى»(١).

وقد جاء فى مقدمة تحقيق كتابه جنة الرضا – موضوع البحث – أن مولده جاء فى نهاية «ق ٨هـ/ ١٤م» وبداية «ق ٩هـ/ ١٥م» وأن ولادته صادفت انتهاء عهد الاستقرار السياسى فى مملكة غرناطة، ودخولها فى سلسلة من الفتن المتلاحقة التى أدت لسقوطها عام «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م».

كما جاء أيضا أنه قد ولى اثنى عشرة خطة فى وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة وغيرها؛ ويُفهم من الألقاب التى أضيفت على اسمه أنه كان كاتبًا ورئيسًا للكتاب، وخطيبًا ووزيرًا، وشاعرًا وناثرًا، وإمامًا ومفتيًا وقاضيًا للجماعة، فضلًا على تقدمه فى العلوم والفنون وتضلعه بالحفظ والتحقيق(٢).

ولعل أهم مايمكن استخلاصه من ترجمة ابن عاصم، ومن استقراء ترجمته، أن

---

(١) المقرى: المصدر السابق، ج٨، ص ٢٩١، ٣٠٤؛ والشخصيات الوارد ذكرها فى المتن تشير إلى شيوخ ابن عاصم، ومنهم قاضى الجماعة بغرناطة أبى القاسم محمد بن يوسف بن سراج الأندلسى الغرناطى، وأبى الحسن بن سمعة، وأبى عبدالله المنتورى، وأبى عبدالله البيانى، وسوف يتم التعريف بهذه الشخصيات أثناء سياق البحث، ويمكن التعريف بهم إجمالًا من خلال مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، ج١: ٤٤-٤٧.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ١:٣٦، ٣٧، ٦٠، ٦١، وقد أفاض أ. د صلاح جرار فى التعريف بابن عاصم من جميع الجوانب، ويمكن الرجوع إلى مقدمة التحقيق، صفحات ١٤، ٣٥ – ٦٠، ولمزيد من التفاصيل حول ابن عاصم ونشأته وحياته ومؤلفاته يمكن الرجوع إلى.المقرى: أزهار الرياض فى أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى، القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩، ١: ١٤٥ – ١٧٩؛ وفيما يتعلق بترجمة ابن عاصم أيضا يمكن الرجوع الى. محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ، القاهرة – المطبعة السلفية ومكتبتها، على نفقة دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ٢٤٨ – ٢٤٩ ترجمة رقم ٨٩٧؛ خير الدين الزركلى: الأعلام، بيروت– دار العلم للملايين ١٩٨٩، ٧: ٤٨.

الرجل من بيت علم وفقه ورئاسة وقضاء وأدب، وهو ما أوضحه الأستاذ عنان فى حديثه عن الحركة الفكرية فى غرناطة فى عصرها الأخير(١).

كما أنى أردت الإتيان بوصف مصادر الترجمة له على ماهى عليه دون تدخل منى، حتى يتبين للقارئ الكريم أن المصادر لم تسبغ عليه صفة المؤرخ؛ فيما يعنى أنه لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول. وهى إشكالية سوف يتم مناقشتها عند الحديث عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم(٢).

وتبقى الإشارة هنا إلى أهم مؤلفات ابن عاصم، وهو كتابه «جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى» وهو موضوع بحثى الرئيسى؛ كما أن من مؤلفاته أيضا كتاب آخر أسماه: «الروض الأريض فى تراجم ذوى السيوف والأقلام القريض» وهو مما ذيل به

---

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ٤٨٩؛ ومما يدل على أن ابن عاصم صاحب الجنة، ومحور حديثى بحثى هذا من بيت فقه وعلم ورئاسة وقضاء وأدب ما أفاض المقرى فى ترجمة الأب (أبى بكر بن عاصم) بقلم ابنه أبى يحيى عاصم، والأب هو صاحب تحفة الحكام، فى أصول الفقه، وصاحب كتاب حدائق الأزاهر، وهو كتاب معروف للمتخصصين فى الدراسات الأندلسية، وتم طبعه، واستفدت منه فى دراستى للماجستير وكانت وفاته سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، وقد جاء فى مقدمة تحقيق جنة الرضا مايشير إلى مآثر أسرة بنى عاصم من العلماء والسياسيين، وما كتبه أيضا المستشرق الأسبانى أ/ سيكودى لوثينا فى هذا الشأن عن (ابن عاصم) الشهيد فى مجلة الأندلس، وهو ما تختلف الآراء حول كونه «عم» صاحب الجنة، أو ابن عم لأبيه، وفى هذا كله ما يشير إلى دور أعلام هذه الأسرة فى المجالات الثقافية والسياسية.. وغيرها. انظر. فى التعريف ببعض أعلام أسرة بن عاصم. المقرى: نفح، ٧: ١٩-٢٢؛ ابن القاضى (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى المتوفى ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م): درة الحجال فى أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة - المكتبة العتيقة، دار التراث ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ١: ٢١٩ -٢٢٠ ترجمة رقم ٣١٦ لابن عاصم الأب صاحق التحفة؛ عنان: نهاية الأندلس، ٤٨٨ - ٤٨٩؛ مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ١: ٣٨-٤٤؛

LUS SECO DE LUCENA PAREDES: "Una Hazaña De Ibn Asim, Identificada.", Al – Andalus", Vol., XVIII., Madrid – Granada 1953 p.p. 209-211.

(٢) يكفينى القول هنا أن ابن عاصم كان يمثل نمطًا من الكتابة يعد التاريخ ضمن مكوناتها، وإن لم يكن أول أولوياتها، وقد يكون هذا النمط استجابة لحاجة المجتمع الأندلسى آنذاك،وحاجة ابن عاصم نفسه ليدق ناقوس الخطر من خلاله.

إحاطة ابن الخطيب؛ وقد أورد المقرى بعضًا من نقولات هذا الكتاب فى النفح والأزهار، بيد إنه يبدو قليل القيمة، خاصة فى موضوع بحثى هذا الذى يعتمد على ذكر السلبيات والنقائص فى مجتمع غرناطة، اللهم إلا فى إحدى المرويات التاريخية التى ستبدو واضحة فى متن البحث وحواشيه.

كما أن لابن عاصم كتاب آخر بعنوان:- شموس العصر فى ملوك بنى نصر؛ وفيه يترجم لملوك بنى نصر، ملوك غرناطة، حتى عصر المؤلف، وهو مما لم يصل إلى الباحثين، وتبقى أهم كتابات الرجل على الإطلاق كتابه الموسوم سابقًا «جنة الرضا...»؛ وقد أنهى ابن عاصم تأليفه لهذا الكتاب فى صفر سنة «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» مما يدل على أن وفاته كانت أواخـــر عام «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» أو أوائل سنة «٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م»[(١)] وقد أرخ فى كتابه هذا لعهد سلطانه الغاب بالله محمد بن نصر الأيسر[(٢)].

---

(١) عن آثار «ابن عاصم» ومؤلفاته العلمية يمكن الرجوع إلى. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١/ ٦٨ -٧٠؛ وقد ورد ذكر مؤلفات ابن عاصم ضمن المصادر التاريخية التى ترجمت له مثل المقرى فى النفح، والأزهار، فضلًا على جهوده فى مجال الفتاوى التى أوردها الونشريسى فى معياره، وأوضحها أ. د صلاح جرار فى مقدمة تحقيقه ٧٠، وليس من شأن البحث الإسهاب فى جميع هذه الجوانب ولذا أحيل القارئ إليها.

(٢) تختلف الآراء حول شخصية سلطان غرناطة الذى عاصره ابن عاصم، وهو السلطان الغالب بالله محمد بن نصر الأيسر؛ من حيث أنه هو محمد الثامن الذى لقب بالأيسر، أو هو محمد التاسع الذى لقب بالأيسر، والحق أن الباحث يجد تداخلًا كبيرًا فى هذا الشأن بين المرويات العربية والأجنبية على النحو الذى جاء فى مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا؛ بيد أن المرجح هنا هو أن «محمد الأيسر» قد تولى حكم غرناطة فى أعقاب خلع محمد بنيوسف الثالث سلطان غرناطة سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، وأنه ربما سمى الأيسر لسوء حظه فى الملك، وأن أول اعتلاء لمحمد الأيسر لعرش غرناطة كان سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) وأنه ظل فى الحكم حتى سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م عندما خلعه محمد الثامن (وهو محمد بن يوسف بن يوسف المعروف بالصغير)، ولجأ محمد الأيسر إلى كنف الدولة الحفصية فى تونس، واستطاع بمساعدتها – ومع مساعدة ملك قشتالة خوان الثانى – على أن يسترد عرشه بعد سنتين من خلعه أو عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م). وظل الأيسر يحكم غرناطة حتى عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م عندما ساند البلاط القشتالى الأمير يوسف بن محمد بن المول فى انقلابه على الأيسر الذى فر إلى مالقة، ثم عاد الأيسر مرة ثالثة لحكم غرناطة بعد ستة أشهر من انقضاء عام (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)=

وأبو عبدالله محمد الملقب بالأيسر هو أحد الذين تولوا عرش غرناطة فى أعقاب خلعه سلطان غرناطة محمد بن يوسف الثالث سنة «٨٢٢هـ/ ١٤١٩م» بعد حكم دام

=بعد وفاة ابن المول أو التخلص منه، وتم ذلك بمساعدة الفونسو الخامس ملك أراغوان الذى كان فى عداء مع قشتالة، فضلا على مساعدة الحفصيين له. وقد استمر محمد الأيسر فى حكم غرناطة حتى عام (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م) عندما ثار عليه ابن أخيه محمد بن عثمان الأحنف أو الأعرج، وتشير الأحداث إلى أن الأيسر كان ملكًا على غرناطة عندما قام ابن اخته «يوسف بن محمد بن نصر» بالثورة عليه سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، وفى ثنايا كتاب جنة الرضا يخبر ابن عاصم بأخبار فتنة سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م وقيام انقلاب من المدعو « الرئيس إسماعيل» على الأيسر فيما يوحى بقيام حوالى خمسة انقلابات على ابن الأيسر أثناء حكمه الذى امتد إلى أواخر سنة « ٨٥٨هـ/ ١١٥٤م »، وهو العام الذى شهد موته على يد الأمير سعد بن الأحمر الذى أصبح سلطانًا على غرناطة، ويتزامن هذا العام أيضا مع قتل أبى يحيى بن عاصم صاحب جنة الرضا، وقد أفضت فى بيان السياق التاريخى لعهد السلطان الأيسر لكى يتبين للقارىء أن أيًا من الأطراف السياسية المتواجدة على الساحة كانت تستنجد إما بقشتالة، أو أرغــون دونما إعلاء لمصالح الوطن، وهو ما يرجح ما أوضحه أ. د حسين مؤنس بأن شعب غرناطة ظل يكافح فى سبيل بلاده إلى آخر لحظة، وأن الذى قصروا فى حق هذا البلد وأضعفوه، وكانوا سببا فى سقوطه فى يد الأسبان هم ملوكه وأمراؤه الذين لم يشعروا بواجبهم حياله. انظر. فى هذا السياق التاريخى والأحداث المذكورة.

مقدمة تحقيق كتاب جنة الرضا، ١٥-٣١؛ عنان: نهاية الأندلس، ١٥٤– ١٦٨؛ مؤنس: مقدمة تحقيق كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر لمؤلف مجهول، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة – الزهراء للإعلام الأعلام ١٩٩١م، ٩، ١٠؛ وقد أفاض أيضا أ. د عبدالعزيز الأهوانى فى الحديث عن عهد «محمد الأيسر» مشيرًا إلى أنه الرابع من ملوك غرناطة، والثامن ممن يحملون اسم محمد وهو الملقب بالأيسر، وأنه صاحب السفارة إلى الظاهر جقمق سلطان مصر، وأن السفارة كانت فيما بين سنتى «٨٤٤ أو ٨٤٦هـ/ ١٤٤٠ أو ١٤٤٢م» ويفند د. الأهوانى عدد الانقلابات التى حدثت للأيسر فى عهده، وأن المراجع الأجنبية تكتب اسم الأيسر على هذا النحو: Mohamed VIII El Izquierdo. Oelzurdo

انظر. عبدالعزيز الأهواني: «سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري»، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مج ١، مج ١٦، مايو ١٩٥٤، ١١٣ – ١١٨؛ وعن اختلاف الرواية الأجنبية بشأن الملقب بالأيسر، وذكر نفر منهم على أنه محمد الثامن وليس التاسع يمكن الرجوع إلى:

= CONDE (J.A): Histroy of the Dominion of the Arabsin Spain., vol. 3, Translated by: Mrs Jona foster., London. P. 309؛

RACHEL ARIE: L'espagne Musulmane Au Temps des nasrides., " 1232 – 1492: Paris 1973. P 131، 450؛

غير أن المرجح لى –من السياق التاريخى المذكور –أن الأيسر هو محمد التاسع وليس الثامن.

ما يقرب من سنتين عقب وفاة أبيه يوسف الثالث سنة «٨٢٠هـ/ ١٤١٧م»[١] وكان أبو عبدالله محمد الملقب بالأيسر أميرًا صارمًا سيىء الخلال، متعاليًا على أهل دولته، بعيدًا عن الاتصال بشعبه، منقبضًا عنهم، لا يكاد يبدو فى أية مناسبة عامة[٢].

وكان وزيره «يوسف بن سراج» واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه؛ إلا أن هذا لم يمنع من قيام الثورة عليه تنادى بولاية الأمير «محمد بن محمد بن يوسف الثالث» الملقب بالزغير؛ وهو الذى نجح فى الإطاحة بأبى عبدالله الأيسر، وظل الزغير حاكمًا لغرناطة لمدة عامين وبضعة أشهر، استطاع الأيسر خلالها العودة إلى غرناطة سنة «٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م» بعد أن تخلص من الزغير بالسجن أو القتل حسب اختلاف المروية التاريخية[٣].

---

(١) مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١٢، ١٣؛ ويرجح السياق التاريخى أن محمدًا هذا هو محمد الثامن، وهو ابن سلطان غرناطة يوسف الثالث.

(٢) عنان: نهاية الأندلس، ١٥٤.

(٣) عنان: المرجع السابق، ١٥٥ –١٥٦؛ والأمير الملقب بالزغير الوارد ذكره هنا لعله أبى عبدالله الزغير الذى جاء ذكره ضمن الوثائق العربية الغرناطية، وثيقة رقم (١٩)، وفيها إشارة إلى دنانير تم ضربها فى عهد السلطان أبى عبدالله الزغير، وكلمة الزغير هى النطق العامى الأندلسى لكلمة صغير. انظر. لويس سيكودى لوثينا: وثائق عربية غرناطية، منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، ط ١، مدريد ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، ٤٠، وثيقة رقم ١٩؛ حاشية رقم (٢) من كتاب نهاية الأندلس للأستاذ عنان ١٥٥ – ١٥٦؛ والوزير يوسف بن سراج الوارد ذكره فى المتن. يرجع نسبه إلى «بنى سراج» وهم من الأسر العربية العريقة التى يرجع أصلها إلى مذحج وطىء من البطون العربية العريقة والتى وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح، وكانوا من أعيان أهل قرطبة حسبما يذكر المقرى، مشيرًا إلى منزلهم بمرسية أيضا. انظر عنهم: المقرى: نفح الطيب، ١: ٢٨١؛ عنان: نهاية الأندلس، ١٥٥؛ وعن بنى سراج أيضا. يذكر الأمير شكيب أرسلان أن بنى سراج من أشهر العشائر العربية، وأن التاريخ لا يعرف عن بنى سراج سوى وزراء سلاطين غرناطة. انظر. شكيب ارسلان: رواية آخر بنى سراج للكاتب الفرنسى الفيكونت درشاتوبريان، ويليها خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، ويليهما كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، القاهرة – مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م،٣، ٦٤؛ وكان من بين شيوخ ابن عاصم من بنى سراج، قاضى الجماعة بغرناطة أبو القاسم محمد بن يوسف بن سراج الأندلس الغرناطى. انظر فى التعريف به. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٤٤– ٤٥؛ والجدير بالذكر أن أغلب الانقلابات التى حدثت ضد الأيسر كانت تتم بمساعدة نصارى إسبانيا، أو–

وعند هذا الحد أتوقف عن التعريف بالسلطان الأيسر(١)، تمهيدًا لعرض التقلبات السياسية والصراع على السلطة ضمن جوانب السلبيات التى اختص بها ابن عاصم المجتمع الغرناطى، وعرضها فى كتابه «جنة الرضا»؛ إذ أن الأحداث تشـير - فى أعقاب الانقلاب الأول المذكور سابقا - إلى بروز ابن عاصم على مسرح الأحداث.

ولعله من المفيد هنا التعريف بكتاب «جنة الرضا» وبيان فلسفة التاريخ عند مؤلفه ابن عاصم، تمهيدًا لذكر السلبيات والنقائص فى المجتمع الغرناطى؛ إذ إن انتقادات ابن عاصم لا يمكن عزلها عن وصف وتحليل كتابه «جنة الرضا»، وبيان فلسفة التاريخ لديه، وهو ما سوف يتم تناوله فى الصفحات التالية بإيجاز.

التعريف بكتاب جنة الرضا - وثقافة ابن عاصم

لعل أهم ما أهدف إليه من خلال هذه السطور هو التعريف بكتاب جنة الرضا، وبيان ثقافة مؤلفه وقدره؛ وثمة آراء تشير إلى أن الكتاب يعد رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصر ابن عاصم، وما دهـاها من آثار التفرق والفتنة ووصف أساليب السياسة الإسبانية فى الكيد والتفريق بين المسلمين(٢).

بيد إن المتأمل لكتاب «جنة الرضا» يصعب عليه التسليم بأنه رسالة فلسفية، فالمرء يصعب عليه مقارنة جهد ابن عاصم بما كتبه «ابن طفيل» فى رسالته «حى بن يقظان» وهى رسالة فلسفية حقًا؛ إلا أننى أتفق مع ما جاء فى مقدمة تحقيق «جنة الرضا» بوجود تشابه بين منهج ابن عاصم فى الجنة، ومنهج ابن حزم فى «طوق الحمامة» فيما يأتيان به من

=اللجوء إلى قشتالة أو أراغون، وكان الأيسر نفسه يلجأ إلى أحدهما ومساعدة أسرة بنى سراج للتغلب على من يناوئه، فضلًا على نصرة الجانب الحفصى فى تونس له، وهو ما سوف يتضح فى سياق الأحداث التى يذكرها ابن عاصم ضمن سلبياته عن المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

(١) لمزيد من التفاصيل عن الجوانب السياسية والانقلابات فى عهد السلطان الأيسر يمكن الرجوع إلى حاشية رقم (١٣) من حواشى البحث.

(٢) عنان: نهاية الأندلس، ٤٨٩.

حــوادث تاريخية «تخص الأندلس –أو غرناطــة»، كــل فى موضوعه[١].

وإذا كان لابد من البحث عن الجانب الفلسفى فى كتاب جنة الرضا؛ فيمكن القول أن الكتاب يعد رسالة ذات صبغة دينية فلسفية إسلامية يتخللها جوانب تاريخية وأدبية وصوفية صيغت بأسلوب بيانى رائع، استخدم فيه كافة المحسنات البديعية، ولا غرو فى ذلك فمؤهلات ابن عاصم –السابق ذكرها –تساعده على ذلك[٢].

ويدور موضوع كتاب جنة الرضا حول «المحن والابتلاءات» التى تصيب البشر من خلال «صور ست» يذكرها ابن عاصم فى مقدمة كتابه؛ وفى ثنايا هذه الصور تأتى المادة التاريخية مشرقية ومغربية وأندلسية، كما أن من أهم دوافع تأليف الكتاب هو أجواء الفتنة التى كانت تسود مملكة غرناطة، وهو ما كان دافعًا لابن عاصم لتقديم العبرة والعظة من خلال كتابه[٣]، على نحو ما سوف يُرى فى المتن.

---

(١) مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٨١؛ وعن حى ابن يقطان لابن طفيل وفلسفته، واسقاطاته النقدية من وراء فلسفته. يمكن الرجوع إلى ما كتبه الباحث عن: النقد الاجتماعى عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير سبق ذكرها، ١٨٩–١٩٠.

(٢) ما قلته هو استقراء من واقع قراءة كتاب جنة الرضا بأجزاءه الثلاثة، واعتماد مؤلفه على مصادر دينية وأدبية وفقيهة وصوفية، وهو ما يتضح من فهارس كتاب جنة الرضا للمحقق.

(٣) عن ظروف تأليف كتاب: جنة الرضا، وأسباب تأليفه، ومنهج ابن عاصم فى كتابه، والصور الستة التى تعبر عن الابتلاءات بشتى أنواعها؛ كتلك التى تصيب المقتنيات العزيزة على النفس من المال والجاه، أو التى تصيب النفوس يمكن الرجوع إلى. مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا، ٧٤–٨١؛ ويعد موضوع «المحن والابتلاءات» من الجوانب أو الموضوعات التى ألف فيها أهل المغرب الإسلامى عامة سواء أكان من المغرب أو الأندلس فى الفترة المبكرة من تاريخهم، ويمكن الرجوع فى هذا الشأن إلى ما كتبه أبو العرب التميمى فى «كتاب المحن»، وقام بتحقيقه الدكتور يحيى وهيب الجبورى الأستاذ بجامعة قطر. وتحدث فيه أبو العرب عمن «ضُربوا من أهل إفريقية» وعن محنة سحنون بن سعيد بخلق القرآن، والكتاب كله ابتلاءات فيمن ضُرب وقُتل وسُجن وامتُحن. انظر. أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمى المتوفى ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م): كتاب المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبــورى، بيروت – دار الغــرب الإسلامي ١٩٨٨، ٤٥٩، ٤٤٩–٤٥٢؛ وقد استشهدت بهذا الكتاب للدلالة على ان ابن عاصم لم يكن أول من ألف فى المحن والابتلاءات، آخذًا فى الاعتبار ان تاريخ الثقافة العربية لم يكن ليفرق بين ما هو مغربى وما هو أندلسى، وهو ما قال به أ.د حسين=

ولست فى حاجــة للحديث عن روافد ابن عاصــم الثقافية ومصــادر كتابــه؛ إذ أننى لا أكتب عن جهود الرجل فى البحث التاريخى، حسبما كتب فى هذا الشأن أكثر من باحث(١)، وإن كان من الممكن القول أن ابن عاصم يملك ثقافة إسلامية ودينية أقرب إلى الكمال فى موسوعيتها؛ ومن هذا المنطلق فيمكن أن يطلق عليه – ترجيحًا – «عالم الدين – المؤرخ» أو «الفقيه – المؤرخ»، وهو فى هذا الشأن يُذكِّر بما يُكتب فى الآونة المعاصرة من كتابات تاريخية لكتاب ليسوا مؤرخين فى الأصل، أو أكاديميين بالمعنى العلمى المعاصر، لكن كتاباتهم تبدو على قدر كبير من الأهمية فيما تقدمه للباحثين من خدمات رغم الاختلاف بشأنها.

ولعل أهم ما يلفت الانتباه فى التعريف بكتاب جنة الرضا هو مناقشة وتحليل عنوان كتابه «جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى»؛ حيث يذهب ابن عاصم إلى ضرورة التفويض لما يقدره الله ويقضيه، ونصَّ الرجل على ذلك فى مقدمة كتابه بعد كلام تقدم، يدعو فيه الله – سبحانه وتعالى – أن ينال الرضا بما يأتى به القضاء من الخطوب الكوارث، والتفويض لله فى مواقع أقداره، والتسليم له فى إيراد كل أمر وإصداره(٢).

والأمر لا يناقش من الناحية العقائدية؛ إذ أن المرء المسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، إلا أن الباحث المدقق لعنوان كتابه يجد نزعة استسلامية لقضاء الله – سبحانه وتعالى – وقدره، وقد يدفع هذا إلى القول بأن الرجل يلغى دور البيئة، ودور الإنسان فى فعل وحدوث الحدث، والمراد بالحدث هنا «سقوط

=مؤنس رحمه الله. انظر. مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد ١٩٦٧، ٥١٩.

(١) انظر على سبيل المثال ما كتبه د. عبدالحليم عويس عن ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى، وما كتبه أ. ليث سعود جاسم عن ابن عبد البر وجهوده فى البحث التاريخى.

(٢) ابن عاصم: أبو يحيى محمد بن عاصم ت «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م» جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ١، تحقيق: صلاح جرار، عمان – منشورات الجامعة الأردنية، دار البشير ١٩٨٩، ١٠٧.

غرناطة»، وهو السقوط الذى كان ابن عاصم يستشرف آفاقه، ويدرك حتمية حدوثه، وكأنه يقرأ حجب المستقبل من خلال معاصرته لأحداث مملكة غرناطة، ويدعو الله – سبحانه وتعالى – أن يلهمه الرضا بما قدر وقضى.

ولا أريد الحكم على ابن عاصم بمقياس عصرى حديث؛ فثمة آراء تشير إلى أن نسبة الأحداث إلى القدرة الإلهية والمشيئة الربانية تلغى أى دور للإنسان سوى دور الأداة أو قطعة الشطرنج، كما تنهى تمامًا أى دور للبيئة؛ وقد ينطبق هذا على معظم مؤرخى العصور الوسطى من المسلمين والكنسيين(١)؛ إلا أن رجاء الرجل ودعاءه بأن يلهمه الله – عز وجل – الرضا بما قدر وقضى لم يأت إلا بعد أن أعيته أمور الحكم والحكام فى غرناطة، والمواطن الذى يعيش غمار الفوضى، والفتن والاضطرابات، والطبقة الحاكمة التى لا يهمها سوى السلطة والنزاع على الحكم، والبيئة الأندلسية التى تتقلص مساحتها يومًا بعد يوم، حتى اقتصرت على غرناطة وما حولها(٢)؛ وهو ما دفعه إلى الأخذ بزمام المبادرة فى الدعوة إلى وحدة البلاد، ونبذ الفرقة والانقسام والاختلاف؛ على النحو الذى يُذكِّر بدعوة القاضى أبى

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، القاهرة – دار المعارف ١٩٨٥، ٤٣.

(٢) كان قيام مملكة غرناطة فى الركن الجنوبى من شبة الجزيرة الأيبرية – فى بدايتها عام «٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م» – يمثل نصف مساحتها، أى نصف مساحة شبه الجزيرة الأيبيرية، وهذه المساحة تختلف وتتفاوت نتيجة للضعف الذى حل بمملكة غرناطة، وطبيعة الصراع بين المسلمين ونصارى إسبانيا.

انظر. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة – دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠، ٢٢٨؛ وغرناطة هى مدينة كورة إلبيرة، وصارت حاضرة الصقع بعد خراب إلبيرة فى الفتنة البربرية، ومعناها الرمانة بلسان عجم الأندلس، وسميت بذلك لحسنها. انظر. ابن الخطيب: لسان الدين أبو عبدالله محمد ت «٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م» الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٧٣، ١: ٩١–٩٣؛ اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت – دار الآفاق الجديدة ١٩٨٠، ٢١؛ ياقوت الحموي (شـهاب الدين أبى عبدالله المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، بيروت – دار صادر بدون تاريخ، ٣: ١٩٥؛

MIGUEL ALCANTRA: Historia De Granada, T. 3.. Granada 1906. P 64 – 65.

الوليد الباجى فى الدعوة إلى وحدة الأندلس(١).

والحق أن ابن عاصم يرى أن ما يحل بالمرء من ذنوب ما هو إلا نتيجة لما كسبت يداه، ويستشهد فى ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢) ولعل فى هذا ما يرجح ماسبق قوله فى وصف ابن عاصم بأنه «الفقيه – المؤرخ، أو عالم الدين – المؤرخ»، إذ لا يمكن إنكار الحاسة التاريخية لديه.

بل إنى أذهب إلى ما هو أكثر من ذلك فى ثقافة ابن عاصم، وهو إيمانه بما يسمى الآن بالتفسير الإسلامى للتاريخ؛ والذى يؤكد القرآن الكريم من خلاله – أى من خلال هذا التفسير – بأن أية أمة – مؤمنه كانت أم غير مؤمنة – إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها أمام الله، وأمام التاريخ(٣)؛ وهذه النزعة تبدو واضحة فى نقد المجتمع فى غرناطة، وكشفه عن سلبيات ونقائص عصره، وهو ما سوف يتم توضيحه فى أعقاب الحديث عن فلسفة التاريخ عنده؛ إيمانًا بأن هذا يفسر كثيرًا من انتقاداته.

فلسفة التاريخ عند ابن عاصم

من المفيد هنا الإشارة إلى ما بذله أ. د. حسين مؤنس من جهد حول التعريف باصطلاح «فلسفة التاريخ» وذلك ضمن كتابه القيم عن التاريخ والمؤرخين؛ مشيرًا إلى أن اصطلاح فلسفة التاريخ يمكن أن يكون له ثلاثة معان رئيسية(٤). ولعل من

---

(١) عن القاضي أبى الوليد الباجى ودعوته إلى وحدة الأندلس يمكن الرجوع الى. عبدالرحمن على الحجى: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة،القاهرة – دار الاعتصام ١٩٨٣، ٣٣٨، ٣٣٩؛ والقاضى أبو الوليد الباجى أشهر من أن يُترجم له فى التاريخ الأندلسى.

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ١٢٤؛ والآية القرآنية الكريمة من سورة الأنفال، آية رقم ٢٥.

(٣) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ، بيروت – دار العلم للملايين ١٩٩١، ٢٦٣.

(٤) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دارسة فى علم التاريخ، القاهرة – دار المعارف ١٩٨٤، ٣٦-٣٧.

أهم ما يعبر عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم – فى كتابه جنة الرضا – هو ما جاء عن نظرته العامة التى تنبثق من خلال منهجه فى الكتابة.

وقد سبق القول أن ابن عاصم لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول؛ إلا أنه من الصعب أن يُسلب الرجل فى حاسته التاريخية، وفلسفته التاريخية، وإذا كان هناك من الدراسات التاريخية ما يشير – فى بداية نشأة التاريخ على أرض الأندلس حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى – إلى أن التاريخ كان جزءًا من التعليم الدينى يتناوله الفقهاء والمحدثون(١)؛ فإن هذا الأمر قد استمر فى معظم فترات وعصور التاريخ الأندلسى، إن لم يكن فى جميعها، حيث أقبل الكثيرون على التأليف والكتابة فى التاريخ ممن ليسوا مؤرخين فى الأصل، وتركوا للعلماء أن يصنفوا كتاباتهم وشخصياتهم.

ومن هنا يمكن القول أن ابن عاصم قد كتب كتابه «جنة الرضا» بروح الفقيه والقاضى، ويؤكد ابن عاصم – من خلال نظرته العامة، ومنهجة المتبع فى كتابه – على العبرة والعظة التى يمكن أن تستخلص من الأحداث التاريخية؛ وفى هذا الشأن يقول بعد ديباجة دينية... «أما بعد، فإن فى حوادث الأيام، لأولى الأفهام، اعتبارًا، وفى طوارق الليالى، لأرباب الهمم العوالى، اختبارًا...»(٢).

كما أن أهم ما يبلور فلسفة ابن عاصم فى حديثه عن سلبيات عصر سيادة غرناطة قوله عن إدبار الزمان، وأن الخير فى انتقاص..... «والشر فى ازدياد، والصلاح فى اضمحلال، حسبما وعد بذلك الصادق المصدوق، فما الذى يطلب وقد انتصف القرن التاسع، وتباعد بنا عن مظان رحمة الله الوطن الشاسع»(٣). وهو فى قوله هذا يستند إلى

---

(١) عبدالله جمال الدين: التاريخ الأندلسي تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجري، القاهرة دون تاريخ. ٥٨؛ وانظر ماسبق قوله فى حاشيه رقم (١١) من حواشى البحث تعليقًا على كتابة التاريخ على يد ابن عاصم، وهو لم يكن مؤرخا فى المقام الأول.

(٢) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ٩٤.

(٣) انظر. ابن عاصم: المصدر السابق، ١: ١٠١.

حديث الرسول ﷺ «خير القرون قرنى، ثم الذى يلونهم، ثم الذى يلونهم»(١).

وابن عاصم فى حديثه هذا يتوقف عند القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وكأنه يريد أن يقول إن الخيرية توقفت عن المجتمع الإسلامى فى الأندلس كلية بعده. ومثل هذه الرؤية يغلب عليها التشاؤم؛ ولعل مرد ذلك إلى تعدد سلبيات العصر الغرناطى فى عهد سلطانه الأيسر خاصة، وفى بقية عهود العصر الغرناطى عامة، كما أن الخير فى أمة الإسلام كان ومازال وسيبقى موجودًا – إن شاء الله تعالى – إلى يوم الدين(٢).

كما أن طبيعة المجتمعات الإنسانية – منذ بدء الخليقة – اقتضت الجمع بين كل نقيض من الأبيض إلى الأسود، من الخير إلى الشر، من الصلاح إلى الفساد، وفى هذا الشأن يأتى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ (٣).

وإذا كان ابن عاصم – رحمه الله وعفا عنه – قد تغافل عن هذا كله، فمرد ذلك –

---

(١) ورد هذا الحديث الشريف فى سنن النسائى ضمن باب الوفاء بالنذر؛ وهو حديث ينتهى نسبه= =الأعلى إلى عمران بن حصين عن الرسول ﷺ قال: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدرى أذكر مرتين بعده أو ثلاثا...؟» انظر النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب المتوفى ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): سنن النسائى المشهور بـ (المجتبى) تحقيق وتعليق: أبو محمد سليمان القاطونى، القاهرة – المكتبة التوفيقية ٢٠١٤م. ص ٧٧٨ باب الوفاء بالنذر حديث رقم ٣٨٠٩.

(٢) استند فى هذا إلى قول النبى ﷺ فيما أورده الإمام البخارى عن معاوية بن أبى سفيان أنه سمع النبى ﷺ يقول «من يرد الله به خيرًا يُفهقه فى الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله»، كما استند فى هذا الإطار أيضا إلى حديث النبى ﷺ عن المغيرة بن شعبة أنه قال ﷺ «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» انظر. الإمام البخارى (شيخ الحفاظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المتوفى (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م): صحيح البخارى، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، القاهرة – دار الاعتصام ٢٠١١، ١٤٥٧ حديث رقم ٧٣١٢، وحديث رقم ٧٣١١.

(٣) قرآن كريم، سورة فاطر، آية رقم ٣٢.

كما سبق القول – إلى خشيته من تعدد السلبيات، وخشيته من سقوط غرناطة معقل المسلمين الأخير فى الأندلس، وقد حدث ما كان يخشى منه.

وعلى الإجمال، فإن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم، فلسفة إسلامية بحتة تركز على استخلاص العبرة والعظة من الأحداث التاريخية، وتفسرها تفسيرًا إسلاميًا، كفقيه وقاضى وعالم دين؛ وينطبق هذا أيضًا على حديثه عن سلبيات العصر الغرناطى من خلال كتابه جنة الرضا، وهو ماسوف يتم توضيحه فى الصفحات التالية:

جوانب من السلبيات الاجتماعية فى الأندلس فى عصر سيادة غرناطة

أولا: فساد الرعية كما يصوره ابن عاصم

سبق الإشارة إلى أن الدافع الرئيسى نحو تأليف كتاب جنة الرضا هو أجواء الفتنة التى سادت غرناطة، ويُحمِّل ابن عاصم مسئولية تدنى الأوضاع فى البلاد على عاتق الحكام والمحكومين على حد سواء، أو الحكام والرعية، ويفسر ابن عاصم أعمال الحكام سلبًا وإيجابًا بطبيعة الرعية ومدى صلاحها، ويقول فى هذا الشأن:- «إن السيرة التى نحمدها منهم، فإنما هى من فضل الله علينا، وأن الشيمة التى نذمها منهم فإنما هى ما اجترحنا من الآثام وجنينا»(١).

ويعتقد ابن عاصم أن ما أصاب مجتمع الأندلس فى غرناطة من تفكك وفرقة إنما مرده إلى ما كسبت أيديهم، وفى هذا الشأن يقول... «فلا شك أن المؤاخذة كانت بسبب تلك الذنوب، وأن الجناية هى التى أوجبت ما طرقنا من الخطوب»(٢) ومؤكدًا أيضا على أن ما أصاب المجتمع والرعية «إنما كان تنبيها من الله على ما عطلنا من

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ١٠٠.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق،٢: ٣٠٤.

حدوده، وإيقاظا من الغفلة عن القيام بحقوقه والوفاء بعهوده»(١).

ويدفعه كل هذا إلى أن يدعو المولى عز وجل قائلًا: ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سبقوا، ونعزم العزم على أمر الله تعالى فى قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(٢).

وهو بهذا الشأن كأنه يستند إلى قول النبى ﷺ: «كما تكونوا يولى عليكم»(٣). ويحمل الرعية (الشعب أو المحكومين) مسئولية ما يحدث من فساد، أو صلاح، وهذا الفساد الذى يعبر عنه بالآثام والذنوب، هو الظلم الذى يصيب المجتمعات الإنسانية والذى يؤدى إلى سقوطها حسب التفسير الإسلامى للتاريخ الذى يؤمن به ابن عاصم(٤)، وهو ماسبق الإشارة إليه، ولعل فى هذا المدخل الذى يعبر عن فلسفة التاريخ عند ابن عاصم؛ ما يدفع للحديث عن مزيد من سلبيات العصر فى المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

ثانيا: سوء الأوضاع السياسية وكثرة الانقلابات

استطاع ابن عاصم أن ينتقد سوء الأوضاع فى عصره، ويجسد كثرة الانقلابات التى حدثت فى عهد سلطانه «الأيسر»؛ فهو ينظر إلى العصر الغرناطى بأنه عصر شدة وأزمات، ويهاجم الإتاوة المدفوعة من ملك غرناطة إلى نصارى إسبانيا قائلًا:

---

(١) ابن عاصم. نفس المصدر،٢: ٣٠٥.

(٢) ابن عاصم: نفسه،٢: ٣٠٢؛ والآية الكريمة من سورة آل عمران، آية رقم ١٠٣.

(٣) ابن عاصم: جنة، ١: ١٠٠؛ والحديث المذكور أورده العلامة الهندى فى كتابه كنز العمال. انظر. الهندى (العلامة علاء الدين على المتقى المتوفى ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧ م): كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكرى حيانى، وصححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ٦: ٨٩ حديث رقم ١٤٩٧٢ فى باب «فى لواحق الإمارة والخلافة».

(٤) انظر. فى هذا الشأن ما كتبه د. عماد الدين خليل فى الفصل الرابع ضمن كتابه عن التفسير الإسلامى للتاريخ. انظر. عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى، ٢٥٥ – ٣٢٥.

«أن مسالمة هؤلاء النصارى المجاورين، كانت قد انعقدت على إتاوة اقتضاها أزم ذلك الزمان،وشدة لاحقة النفاق...»(١).

وهو فى قوله هذا يصب نقده على الأوضاع السياسية فى مملكة غرناطة؛ ولعل المرجح أنه يقصد – فى نقده هذا – حركة الأمير أبى الحجاج يوسف بن المولى الذى يسميه الكتاب القشتاليون Ibn- Almawla؛ وهو الذى تمكن من خلع «محمد الأيسر» سنة «٨٣٥هـ/ ١٤٣١م» وكان ذلك بمساعدة «خوان الثانى» ملك قشتالة، الذى أرسل إليه ابن المولى يطلب مساعدته على ارتقاء العرش فى مقابل أن يحكم باسمه، ويتعهد بدفع الجزية له(٢).

وقد كان فى ذلك دافعًا لابن عاصم للتوجه إلى الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بأن يكفى وطنه شر النكبات؛ ويقول فى هـذا الشأن: «ونبسـط كف الضراعة والاضطرار، فى كف الفتن عن هذا الوطن، وكف الكفار عن هذه الديـار، وتيسير الفرج القريب لهـذا القطر الغريب، وتسهيل الصعب العسير لهذا الصقع النائى عن الولى والنصير»(٣). وهو فى دعائه هذا ينظر إلى الأندلس على أنها قطر غريب بعيد عمن ينصره، ويقدم له العون، ولعل فى هذا ما يذكر بقول ابن الخطيب عن الأندلس بأنه «قلق المهاد»(٤).

ورغم أن ابن عاصم يتوجه إلى المولى سبحانه وتعالى بالدعاء؛ إلا أن الدعاء هنا قد يكون تعبيرًا عن يأسه من أوضاع البشر حكامًا ومحكومين، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ٢: ٢٧٩.

(٢) محمد عبدالله عنان: وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، مج٢، عدد ١-٢، ١٩٥٤، ٤٠؛ مقدمة كتاب جنة الرضا،١: ١٦، وقد سبق الإشارة إلى انقلاب ابن المولى فى حاشية رقم (١٣).

(٣) ابن عاصم: جنة،٢: ٢٩١.

(٤) جاء فى وصية لسان الدين بن الخطيب لبنيه قوله «ومن رُزق منكم مالًا بهذا الوطن القلق المهاد، الذى لا يصلح لغير الجهـاد، فلا يسـتهلكه أجمع فى العقار...» انظر. المقرى: أزهار الرياض،١:٣٣٤؛ نفح الطيب،١: ٢٦٣.

رب البشر، وفى هذا تعبير عن إيمانه، وثقافته الإسلامية والدينية؛ إذ أن من المعروف أن الدعاء فى الإسلام هو العبادة(١)، وقد لجأ إليه ابن عاصم بعد شعوره بتأزم الأوضاع السياسية، واللجوء إلى النصارى فى إسبانيا، ودفع الجزية لهم، واستنجاد نفر من مسلمى غرناطة بهم استقواءً بهم ضد إخوانهم من بنى جلدتهم ووطنهم ودينهم.

كما استطاع ابن عاصم فى كتابه «جنة الرضا» تصوير ما حدث من ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م»(٢) وهو ابن أخت السلطان الأيسر(٣)؛ ولا يفوته أن يوضح موقف المجتمع الغرناطى من الفتن والانقلابات المذكورة، ويبدو هذا واضحًا عند حديثه عن فتنة سنة «٨٥٤هـ/ ١٤٤٩م»(٤) والتى يقول عنها: «... ولذلك العهد ماجت الحضرة بأهلها موجًا، واستشعرت النفوس عظيم الحادثة، وخشيت عاقبة هذه الواقعة، وجعل الله فى قلوب الخاص والعام، والقريب والبعيد، استقباح هذه الثورة، واستنكار هذه الفعلة، ولُقن الناس ما تضمنته من أمانى طاغية قشتالة فى تشتيت الكلمة، وتفريق الأمة المسلمة، وضُربت لهم فى ذلك الأمثال، وحَذَّروا من عواقب هذه الأحوال، وناصح الفقهاء فى ذلك الدين الحنيف، والإسلام الشريف، فجزموا بخطر الواقع وحرمته، وثبتوا على الاستمساك بعز الملك وحرمته»(٥).

ثالثًا: تعدد حالات الاعتقال، والنفى خارج البلاد

ارتبطت الانقلابات السياسية فى عهد السلطان الأيسر بحدوث حالات من الاعتقال، وأحيانا النفى خارج البلاد؛ ومن هؤلاء الذين وقع عليهم الاعتقال «أبو

---

(١) يؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ القرآن الكريم، سورة غافر آية ٦٠.

(٢) ابن عاصم: جنة،١: ٣١١، ٣١٢.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب: جنة الرضا،١: ٢٢.

(٤) قام بهذه الفتنة المدعو الرئيس إسماعيل. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا،١: ٢٨.

(٥) ابن عاصم: جنة،١: ١٩١.

بكر بن عاصم»[١] والد أبى يحيى بن عاصم موضوع البحث، وصاحب الجنة، وهو يقول فى هذا الشأن: «وأنه كان من قدر الله التمحيص الجارى على أبى، رحمه الله، فى عام أربعة عشر وثمانمائة بالاعتقال المطاول الأمد»[٢]. بيد إنه لا يذكر السبب فى اعتقال والده؛ إلا أن المرجح أن سوء الأوضاع السياسية، وكثرة التقلبات، وتعدد خروج الحكام بعضهم على بعض، من الأمور التى تؤدى إلى مثل هذا المناخ السيء، وقد ترك حادث اعتقال الأب أثرًا سيئًا فى نفس الابن، ويقول ابن عاصم فى هذا الشأن:

«وأنا – ولطف الله متعرف فى كل حال – فى ثقاف مقضى علىَّ لأمد محدود وأجل معدود »[٣] وقد أوضح ابن عاصم فى هذا الشأن أنه آثر الاختفاء فى دار أحد أصحابه فى أعقاب اعتقال والده، واستمر هذا الاختفاء مدة حتى زالت عنه نكبته بفضل الدعاء إلى الله – سبحانه وتعالى – والاستشهاد بقوله عز وجل «أفمن يجيب المضطر إذا دعاه»[٤].

بيد أن المؤسف فى اختفاء ابن عاصم فى دار أحد أصحابه أن الرجل آثر ألا يطلب الغوث عندما أصابته أزمة فى التنفس، حتى لا يشعر به من جاء إلى صديقه من شيوخ العلم، وهو ما يصوره ابن عاصم بقوله: «...واعترانى شَرَقٌ كبير سد مجرى التنفس منى، فشاهدت الموت عيانًا، ولم استجز فضيحة صاحبى...»[٥]؛ وهو ما يعنى أن ابن عاصم كان يفضل الموت على كشف سر من آواه وخبَّأه؛ وليس عندى من تعليق فى

---

(١) سبق التعريف بابن عاصم الأب فى حاشية رقم (١٠) وانظر عنه أيضا مقدمة تحقيق جنة الرضا، ٤٠-٤٣؛ ومن أشهر ما كتبه ابن عاصم الأب كتاب تحفة الحكام فى نكت العقود والأحكام على مذهب الإمام مالك، وقد وقفت على طبع هذا الكتاب فى الجزائر سنة ١٣٢٢هـ على ذمة أحمد بن مراد وأخيه ولعلها كانت أول مرة يطبع فيها الكتاب.

(٢) ابن عاصم: جنة، ٢: ٢٠٣.

(٣) ابن عاصم: المصدر السابق، ٢: ٢٠٤.

(٤) القرآن الكريم، سورة النحل آية ٦٢؛ وقد خطرت الآية الكريمة على قلب ابن عاصم أثناء اختبائه فى بيت أحد أصحابه، فيتضرع إلى الله – سبحانه وتعالى – بها دون أن يتكلم لما أصابه من غُصة وشرق فى حلقه. انظر. ابن عاصم: نفس المصدر،٢: ٢٥٩.

(٥) ابن عاصم: نفسه، ٢: ٢٥٩.

هذا الشأن سوى أن هذا ما يفعله الفساد والاستبداد بالنفوس، فحال الابن ليس بأحسن من حال الأب، فكلاهما فى الاعتقال سواء إن صحت رواية ابن عاصم.

ومن الشخصيات التى تعرضت للعزل من منصبها أولًا، ثم الاعتقال ثانيًا، كان قاضى الجماعة «أبو القاسم بن سراج»؛ وهو الذى يصفه ابن عاصم بقوله «شيخنا قاضى الجماعة أبو القاسم بن سراج»؛ والذى يقول عنه أثناء ثورة المعروف بابن المول على السلطان الأيسر: «... وقد كانت الفرقة القائمة بأمر هذا الثائر حنقة على شيخنا المسمى – رحمه الله – بأسباب يستدعى تقريرها الملك إذ ذلك العهد عز له...»(١).

وفى قَصه هذا تصوير لما كان يحدث للعلماء نتيجة لتقلبات الأوضاع، وتوثب الحكام بعضهم على بعض؛ بل إن الأمر يزداد سوءًا عندما يشير ابن عاصم إلى اعتقال شيخه ابن السراج، مع القائد ابن كُماشة، أثناء ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م» وفى هذا ما يشير إلى موقف سوء قد حضره ابن عاصم فى الدولة اليوسفية وهو... «يوم القبض على القائدين أبى الحجاج يوسف بن كماشة وأبى القاسم بن السراج أعظم الله مثوبتهما»(٢).

وفى هذا ما يعنى أن العلماء والقضاة والقادة أيضا كانوا يتعرضون للعزل، أو الاعتقال مع حدوث الانقلابات السياسية، ومجئ ثائر جديد؛ ولم يكن ابن عاصم نفسه بعيدًا عن الاعتقال حسبما تم الإشارة إليه آنفًا، إذ أن الرجل تعرض – مع سلطانه الأيسر – للنفى خارج البلاد إلى مالقة، فى أعقاب ثورة أبى الحجاج يوسف السابق ذكره، وهذا النفى الإجبارى قد ترك آثاره فى نفس ابن عاصم، فقد كان الرجل يخشى دسائس ومكائد حاشية السلطان الجديد، خاصة بعد اعتقال شيخه أبى القاسم

---

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ١٧١؛ وقد جاء التعريف بابن سراج فى مقدمة تحقيق جنة الرضا بما لا يدع مجالًا للتعريف به من جديد. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا، ١: ٤٤–٤٥.

(٢) ابن عاصم: ٢/ ٥٥، ٥٦؛ وابن كماشة يرد ذكره فى الجنة القائد يوسف بن فرج بن كُماشة والمرجح لى أنه كان قائدًا للجيش، ومع توالى الانقلابات والثورات كان يتعرض للعزل والاعتقال والسجن، والسجن والاعتقال من المصطلحات التى استخدمها ابن عاصم نفسه فى الجنة ١/ ٣١٢.

ابن السراج، والقائد ابن كماشة، وقد كان فى ذلك دافعًا لابن عاصم فى الاعتماد على... ما اعتمده أهل كتب الصحيح من التعوذات الواردة فى ذلك عن النبى ﷺ ويضرع إلى... «الله فى استكفاء شر كل ذى شر»(١).

وفى هذا كله ما يشير إلى حالة «التفكك» التى أصابت المجتمع الغرناطى، بما أدى إلى انفصال بعض أجزائه عن بعض، كماهو الحال فى رحيل الأيسر وحاشيته إلى مالقه، وبقاء أبى الحجاج يوسف فى غرناطة مع حاشية جديدة(٢).

وقد يكون هذا التفكك نتيجة لما أصاب المجتمع الغرناطى من «خلل اجتماعى» وشيوع مظاهر القلق والاضطراب، والتناقض بين أبناء المجتمع الواحد(٣)، وخير مثال يعبر عن هذا رأى ابن عاصم فى السلطان أبى الحجاج يوسف الذى قال فيه:

«كنت أراه مائلًا للخير بطبعه، مباعدًا للشر بقوله وفعله، وإنما كنت استثقل بعض أرباب دولته، ممن أتوسم فيه غلًا أو استشعر منه حسدًا»(٤).

---

(١) أشار ابن عاصم إلى وساطته بين السلطان أبى الحجاج، وسلطانه الأيسر فى أعقاب نفيها إلى مالقة أو خروجها من غرناطة، وقيام ابن عاصم بسفارة إلى غرناطة للتقريب بين أبى الحجاج والأيسر، وأن ابن عاصم كان يخشى من أرباب دولة أبى الحجاج، من الذين كانوا يسعون إلى إغراء العامة به، وتسليط الرعاع عليه، وهدم ما لديه من أملاك ودور فى غرناطة وأن الله – سبحانه وتعالى – صرف عنه هذا الابتلاء. انظر. ابن عاصم: جنة،١: ١٨٠؛ ٢: ٥٦؛ ومالقة مدينة بالأندلس من أعمال رية على ساحل البحر المعروف بالزقاق. انظر عنها. ياقوت: معجم البلدان، ٥: ٤٣ وغيره من كتب الجغرافيا.

(٢) جاء فى معرفة التفكك لغة بأنه انفصال بعض الأجزاء عن بعض، ويراد بالتفكك اصطلاحًا انهيار وحدة اجتماعية وتداعى بنائها واختلال وظائفها وتدهور نظامها، سواء أكانت هذه الوحدة شخصًا أم جماعة أم مؤسسة أم أمة بأسرها، وهو عكس الترابط والتماسك. انظر عن مصطلح التفكك. معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، إعداد: نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥، ١٦٨.

(٣) يعد القول تجسيدًا لمصطلح «الخلل الاجتماعى» الذى يعبر عن مظاهر القلق والاضطراب والتناقض فى العلاقات الاجتماعية بين أعضائه، سواء أكان مجتمعًا صغيرًا كالأسرة، أم كبيرًا كالأمة بأسرها، أم أكبر وأشمل كالمجتمع الدولى. انظر. معجم العلوم الاجتماعية، ٢٥٤.

(٤) ابن عاصم: جنة، ٢/ ٥٦؛ وقد لعب ابن عاصم دورًا هامًا عندما استتب الأمر للسلطان أبى=

ومثل هذه الجوانب المعبرة عن «التفكك» و«الخلل» تعدان من نتائج سوء الأوضاع السياسية، وتعدد حالات الاعتقال والنفى خارج البلاد، وتكوين حاشية جديدة مع كل ثائر جديد، ورغم أن الحالات المذكورة من اعتقال ونفى تبدو حالات فردية؛ إلا أن ما وصل إلينا من خلال ابن عاصم لايمنع –ترجيحًا– من وجود ماهو أكثر منها، فى ظل تدنى الأوضاع السياسية، وكثرة التقلبات والانقلابات وتداعيات كل هذه الجوانب؛ حتى بات الشعور بالاغتراب النفسى أمرًا لا مفر منه فى المجتمع الغرناطى، وهو ماسوف يتم الحديث عنه فى الجزئية التالية.

رابعًا: الشعور بالاغتراب النفسى

لعل أهم ما يلفت انتباه الباحث فى هذه الجزئية هو أن ابن عاصم قد وقع عليه شيء من سلبيات المجتمع الأندلسى فى العصر الغرناطى؛ وفى عهد السلطان الأيسر تحديدًا، ألا وهو «الاغتراب» الذى يُعرَّف بأنه البعد عن الأهل والوطن[1]، وقد تجرع ابن عاصم مرارة هذا البعد عن الأهل والوطن، عندما أُجبر على ترك غرناطة، والرحيل إلى مالقة فى أعقاب ثورة أبى الحجاج يوسف بن أحمد سنة «٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م» أو ما أسميته سابقا بالنفى خارج البلاد.

والحق أن ابن عاصم قد أفاض فى التعريف بالاغتراب تعريفًا وافيًا يمكن أن يضيف إلى روافده الثقافية رافدًا آخرًا يعتمد على إلمامه بعلم النفس ومعرفته بطبائع البشر، فيما يمكن وصفه بـ «عالم النفس – الفقيه»، ومما أفاض فيه ابن عاصم عن

=الحجاج فى غرناطة، فبالإضافة إلى أنه قام بدور الوسيط فى الصلح بين سلطانه الأيسر وبين أبى الحجاج وأثناء إقامة الأيسر بمالقة؛ فقد استدعاه أيضا أبو الحجاج ليستعمله فى سفارة عنه إلى المغرب، ومع أنه أصبح مقربًا من السلطان الجديد، إلا أنه هذا الوضع لم ينزع المخاوف من قلب ابن عاصم لأنه كان يخشى خصومه من الحاشية الجديدة، وهذا يشير إلى سوء الأوضاع السياسية وأثرها فى وجود التفكك والخلل فى المجتمع الأندلسى فى غرناطة.عن الأحداث المذكورة. انظر. مقدمة تحقيق جنة الرضا،١: ٥٧ –٥٨، ابن عاصم: جنة ٢: ٦٥–٦٦.

(١) انظر فى تفسير لفظة «الاغتراب» معجم العلوم الاجتماعية، ٥٠–٥١.

الاغتراب قوله: «..عظم الاغتراب على من قضى به عليه، وسبب ذلك –والله أعلم– كون الإنسان حيوانًا مدنيًا، لا يقدر على الإقامة وحده، ولا تقوم مصالحه على انفراده...» ومضيفًا أيضًا أن الاغتراب «نوع من الانفراد، أنه يحصل بين ناس لا يعرفهم، ويفتقر إلى قوم لا أنس لديهم، ولا موجب لديهم للعطف عليه. وكذلك من حيث من غاب عنهم من أهل، فإنهم قد فقدوا أنسه، وعدموا المصلحة المقتنصة لهم منه، فيشتد عليه أسفهم، ويعظم بفرقته كمدهم»(١).

وبغض النظر عما فى لغته من محسنات بديعية تغلب على أسلوبه؛ إلا أن المدقق لكلماته فى وصف فراق الأهل والولد أثناء وجهته إلى مالقه يدرك مدى ما كان يعانيه ابن عاصم، حتى أنه قال بعد كلام تقدم... «ومودعًا مع أصاغر الذرية قلبى، وقد استصحب غيرى أهله وولده، وإن كان فارق ماله وبلده، إلا مَنْ كان مثلى فإنه ذهب طائشًا لبه، منتزعًا من بين جنبيه قلبه...»(٢).

والمتأمل لكلمات ابن عاصم المستخدمة مابين لبه الطائش، وقلبه المنزوع، يدرك مدى حرقة فراق الأهل والولد، وقد دفعه هذا إلى الاستشهاد بما قاله ابن الخطيب من أشعار فى هذا الشأن قائلًا:

يوم أزمعـــت عنك طىَّ البعاد وعدتنى عن الـــوداع العـــوادى
قال صحبى وقد أطلت التفاتى أى شىء تركته ؟ قلت: فؤادى(٣)

والرجل هنا ترك قلبه، فكأنه لا شىء يفرق بينه وبين الشخص الميت، والرأى عندى أنها الفتنة وما تفعله فى النفوس، بكل مافيها من استبداد، وأوضاع سوء، وسوء الظن بأرباب السلطان السابق وحاشيته، والشىء نفسه يحدث ويتكرر مع عودة من

(١) ابن عاصم: جنة، المصدر السابق، ٢: ١٥٥.
(٢) ابن عاصم: جنة ٢: ١٥٢.
(٣) ابن عاصم: ٢: ١٥٢.

كان سابقا فيما يتعلق بنظرة حاشيته تجاه من أزيح عن الحكم هو وأربابه.. وهكذا دواليك تحدث المأساة دونما إعلاء لمصلحة البلاد.

وأسوأ من الاغتراب فى حد ذاته هو اغتراب النفس من الداخل، وهى فى بلدها ووطنها، وقد شعر بهـذا النوع من الاغتراب من قبل «أبـو بكر بن عاصم الأب» عندمـا تم اعتقـاله سـنة «٨١٤هـ/ ١٤١١م»، وأنشد فى ذلك يقول:

أودعونى تحت الثرى ونسونى فمقامى به مُقـام طويـل
أنا حيٌّ وحـالتى حـالُ ميتٍ ليت شعرى هل للخروج سبيل[١]

كما أن ابن عاصم الابن نفسه – وصاحب موضوع البحث – قد عانى من الاغتراب بشقيه العام والنفسى، فقد كان يشعر بالغربة بين أبناء وطنه،وهو ماحدث له من خلال تصويره لمعاناته من إغراء العامة به، وتسليط الرعاع على جهته لخراب دوره وأملاكه، وذلك أثناء سفارة قادها من السلطان الأيسر سلطانه، إلى السلطان أبى الحجاج فى غرناطة، مشيرًا إلى ماحدث من العامة والرعاع كان... «عن غل كامل وحسد باطن، والله بالمرصاد، وعند الله تجتمع الخصوم»[٢].

وإجمالًا، وعلى أية حال، لم يكن ابن عاصم الأب والابن هما من عانا فقط من الاغتراب، والاغتراب النفسى، فقد شاركهما فى هذه الظاهرة أكثر من شخصية فى عصر سيادة غرناطة[٣]؛ بل إن ما ذكرته من تداعيات للأحداث السياسية، يشير إلى

---

(١) ابن عاصم: جنة،٢: ٢٠٣.

(٢) ابن عاصم:جنة، ١: ١٨٠؛ وقد أشار ابن عاصم فى موطن آخر إلى معاناته، وشعوره بالاغتراب فى أعقاب التمحيص الوارد على والده، وأن الله – سبحانه وتعالى– قيد له صديقًا يحمل عنه تلك النائبة، أقام معه سبعة أشهر يقوم بخدمته، وبالطبع لم يذكر ابن عاصم اسم صديقه هذا خشية البطش به من قبل السلطان. انظر. ابن عاصم: جنة، ٣: ٥٧، ٥٨.

(٣) كان إسماعيل بن يوسف، أبو الوليد بن الأحمر – المنتمى إلى الفرع الثانى من الأسرة النصرية، وهو فرع رؤساء مالقة – أحد الذين شعروا بالاغتراب، بل يمكن القول أن ابن الخطيب نفسه كان يشعر به، وهو ما يتضح فى وصيته لبنيه، ووصف غرناطة بأنها وطن قلق المهاد، وفى هذا ما يشير إلى عدم استقراره النفسى.=

إنسان ذلك الزمان كان يعانى من الاغتراب فيما بين غربة النفس، وغربة البدن؛ وكلاهما أسوأ من الآخر؛ فضلا على الشعور بعدم الاستقرار وهو مايدفع إلى حدوث مأساة الأندلس الكبرى، فقد سقطت من الداخل قبل أن تسقط بفعل ما أحاط بها من عوامل خارجية.

خامسًا: سوء الأوضاع الاقتصادية

أشار ابن عاصم فى كتابه جنة الرضا إلى أكثر من صورة تدل على مدى سوء الأوضاع الاقتصادية فى غرناطة؛ ومن أمثلة تلك الصور حادث الجراد عام «٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م»؛ مشيرًا إلى عجز القدرة البشرية عن مواجهة زحف الجراد فى الأماكن الشرقية من الوطن، حتى ظن البعض أن الحدث يعد «آية من آيات الله» وأنه «عقاب مرسل وجند من جنود ربك التى لا يعلمها إلا هو»(١).

ويستطرد ابن عاصم فى بيان آثار زحف الجراد اقتصاديًا؛ مشيرًا إلى تلف الزرع والبذر، وكأن الأرض «لم تنبت فى عامها خضرًا». ولم يكتف ابن عاصم ببيان الزحف الحيوانى المشار إليه؛ بل إنه يوضح سبل مقاومته من خلال رد فعل بعض بلدان غرناطة، كما فعل أهل بسطة، وأهل أشكر، من خلال ما اتخذوه من أخاديد أجبروا فيها الجراد على السقوط فيها طبقا لما أوضحه ابن عاصم تفصيلًا(٢).

=انظر. عبدالقادر زمامة: أبو الوليد بن الأحمر الدار البيضاء ١٩٧٨، ٧٧، ٨٢، ٩٠؛ وقد سبق الإشارة إلى وصية ابن الخطيب فى حاشية رقم (٤٥) وابن الأحمر السابق ذكره هو إسماعيل بن يوسف بن محمد، أبو الوليد بن الأحمر المتوفى سنة «٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م» وهو صاحب مؤلفات كثيرة فى تاريخ الأندلس، ومنها – على سبيل المثال – كتاب نثير الجمان فى شعر من جمعنى وإياه الزمان، والذى قامت بنشره مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية.

(١) ابن عاصم:جنة، ١: ٢١٨ أو جنة الرضا، ١: ٢١٨.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق،١: ٢١٨، ٢١٩؛ وبسطة بالاسبانية Baza وتقع إلى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة، وأُشْكَر بالأسبانية Huescar وهى تقع شمال بلدة بسطة، وإلى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة. انظر. حاشية رقم ٥، ٦ للمحقق من كتاب: جنة الرضا، ١: ٢١٨، ٢١٩؛ وذكر الحميرى عن بسطة أنها=

كما يشير ابن عاصم أيضا إلى الجانب السلبى لدى بعض بلدان وطنه فى مواجهة مشكلة الجراد، كما هو الحال عند أهل وادى آش، وأهل بيرة، وكثير من أهل وادى المنصورة، من الذين استكثروا أهلها عظم الحادث، وكثرة أعداد الجراد، فظنوا أنها... «جند الله الذى لا يُدافع، فكادت تستأصل جلَّ الأقوات، ويلحق الأحياء من عدم الطعمة بالأموات، إلا أن لطف الله للجميع متعرف...»[1]. وفى المقطع إشارة إلى ما ترتب على زحف الجراد من سوء للأوضاع الاقتصادية، حتى كاد الأحياء يتساوون مع الأموات نتيجة لقلة الأقوات، وكساد الزروع والثمار.

والجدير بالذكر هنا أن ابن عاصم لا ينظر إلى حادث الزحف الحيوانى هذا على أنه من موجبات الذنوب؛ فالأمر قد يكون ظاهرة طبيعية تحدث فى كثير من المجتمعات، بدليل أنه يذكر بعضًا من بلدان غرناطة قامت بمقاومة الزحف المذكور، فى حين نظر إليه البعض الآخر أنه عقاب إلهى؛ ويأتى هذا خلافًا لفلسفة ابن عاصم الذى ينظر إلى أزمة غرناطة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا بأن مردها إلى عقاب الله سبحانه وتعالى، لكنه فى هذا الحادث بعينه يتفق مع رد الفعل الإيجابى ويمتدحه، وهو ما

=مدينة بالأندلس بالقرب من وادى آش، وهى من كور جيان،وهى مشهورة بالمياه والبساتين، وكان أديبها أبو الحسن البسطى يقول لو طبعت على الزهد لحملنى حسن بلدى على المجون والعشق والراحات. انظر. الحميرى (أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم المتوفى ٨٦٦ ه / ١٤٦١م): كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠، ١١٢ – ١١٣؛ وانظر عن أشكر أيضا ما قاله ابن الخطيب فى ريحانة الكتاب ضمن مشاهداته، وحاشية المحقق رقم (٢) للأستاذ. محمد عبدالله عنان رحمه الله فى ص ٢٩٣. انظر. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبدالله عنان،القاهرة – مكتبة الخانجى ١٩٨١، ٢: ٢٩٣ – ٢٩٤.

(١) ابن عاصم: جنة، ١: ٢١٨؛ ووادى آش بالأسبانية Gudix وتقع إلى الشرق من غرناطة، وبيرة بالإسبانية Vera وتقع شمال شرقى مدينة غرناطة، أما وادى المنصورة، فهى مجاورة لبيرة إلى الشمال الشرقى من المرية، وبالأسبانية Gueyas de Almanzord. انظر. حواشى التحقيق فى جنة الرضا،١: ٢١٨ حواشى رقم ٤، ٦، ٧؛ وانظر أيضا عن البلدان المذكورة. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب، ٢: ٢٩١، ٢٩٢ (بيرة وحاشية رقم ٢ من ص ٢٩١)، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ (مدينة وادى آش وحاشية المحقق رقم ٤ ص ٢٩٤)، وعن وادى آش أيضا يمكن الرجوع إلى. الحميرى: كتاب الروض المعطار، ٦٠٤، ٦٠٥.

يفهم ويستدل من سياق حديثه، مشيرًا إلى لطف الله – سبحانه وتعالى – فى نهاية الحدث وزوال النكبة، ولكن هذا لا يلغى – على أية حال – سوء الأوضاع الاقتصادية فى غرناطة.

ومن المرويات التاريخية التى ذكرها ابن عاصم؛ وتشير إلى سوء الأوضاع الاقتصادية أيضا، حادثة الدراهم المغشوشة، والتى يقول ابن عاصم فى شأنها... «فإن هذه نازلة كبيرة، وفادحة عظيمة، لم يسلم من شرها أحد، ولا أظنه نجا منها فى هذا الوطن بشر»(١). وفى النازلة المذكورة تفاصيل واضحة عن انتشار عملات من الذهب الأبيض المغشوش فى أسواق غرناطة، وفى هذا ما يشير إلى تدليس فى العملة، وأن هذا التدليس قد عم ضرره فى غرناطة ولم يسلم منه أحد.

وفضلًا على ما ذكره ابن عاصم فى هذا المضمار الاقتصادى؛ فإنه يمكن القول أن سوء الأوضاع السياسية من الأمور التى يترتب عليها سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على حد سواء؛ بما يشير إلى أن قلة مرويات ابن عاصم فى هذا الشأن لا تعبر عن حالات فردية أو حوادث فردية؛ فالظروف السياسية هى التى تقود الأوضاع الاقتصادية إلى الأمام أو الخلف، وفى هذا الشأن يقول ابن عاصم منددًا بالاختلاف والفرقة... «وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف»(٢).

سادسا: تفكك النظام الإدارى للدولة والاستخفاف بقوانينها

ارتبط تفكك النظام الإدارى للدولة فى غرناطة بما قاله ابن عاصم عما كانت تحتوية خزانة الدولة النصرية فى غرناطة من كافة النفائس والجواهر والأقراط، والأسلحة والسيوف والحلى والدروع، وكافة ألوان الأمتعة الأخرى... مشيرًا إلى أن كل هذا قد

---

(١) ابن عاصم: جنة الرضا، ١: ٢١٨.

(٢) ابن عاصم: المصدر السابق، ٢: ٣٠١؛ المقرى: أزهار الرياض،١: ١٦٤.

«التهبه شواظ الفتنة، والتقمه تيار الخلاف والفرقة، فرُزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله، وتقصير ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلًا عن كله»(١).

وفى النص إشارة واضحة إلى إفلاس خزانة الدولة النصرية فى كافة مقتنياتها؛ ومن المرجح أن هذا الإفلاس المادى قد امتد إلى النظام الإدارى للدولة، والاستخفاف بقوانينها؛ وهنا استعير من كلمات ابن عاصم إحدى نصوصه النقدية نقلًا عن كتابه: «الروض الأريض»؛ والتى يقول فيها ابن عاصم: حدثنى شيخنا القاضى أبو العباس أحمد بن أبى القاسم الحسنى... أن الرئيس أبا عبدالله بن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبدالله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل، مما يتوقف عادة على إذن الوزير، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبى عبدالله، قال الشريف: فأمضاها كلها له، ماعدا واحدة منها تضمنت نقص عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: «لا والله يا رئيس أبا عبدالله لا آذن لك فى هذا لأن ما استقمنا فى هذه الدار إلا بحفظ العوائد»(٢).

ويعلق ابن عاصم على هذا النص بقوله: «فلما تأذن الله تعالى للدولة بالاضطراب واستحكم الوهن بتمكن الأسباب، عُدل عن هذه القواعد الراسخة، واستُخِف بتلك القوانين الثابتة، فنشأ من المفاسد ما أعوز رقعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه، وتعذر فيه الدواء الذى يرجى نفعه»(٣).

ولقد رأيت الإتيان بالنص كاملًا، وعلى نقد ابن عاصم لأوضاع عصره فى تعليقه على النص؛ بما يشير إلى وجود علاقة وثيقة بين الإفلاس المادى للدولة فى خزانتها،

---

(١) ابن عاصم: نفس المصدر، ٢: ٢٤.

(٢) المقرى: أزهار الرياض،١: ٥٩؛ وهو النص الوحيد الذى اعتمدت عليه من كتاب الروض الأريض لابن عاصم، وجاء به المقرى فى أزهاره، ولم يرد فى كتاب «جنة الرضا» لابن عاصم، واستخدمته هنا للدلالة فيما يعبر عن النقد الاجتماعى عند ابن عاصم وذكره للسلبيات ومشاكل المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة.

(٣) المقرى: أزهار، ١: ٥٩، ٦٠.

وبين الإفلاس الإدارى، والتفكك التنظيمى للدولة، والاستخفاف بقوانينها، بحيث يختلط المشروع باللا مشروع، ولعل هذا هو ما أراده ابن عاصم، وهو ما أرجحه دونما أن يُحمَّل نقد الرجل فوق ما يحتمل.

وفى رأيى أيضا أن لفظة «العوائد» الوارد ذكرها فى نص ابن عاصم تشير إلى مجموعة القواعد والقوانين التى تنظم سير الدولة، والتى يصعب على أى مجتمع الاستغناء عنها؛ ومثل هذه القواعد والقوانين تنهار فى فترات الضعف بحيث تسير الأمور وفقًا للأهواء والوساطة والمحسوبية والرشوة، وتصبح هذه العوائد «القواعد والقوانين» مزيفة عاجزة عن تحقيق الاستقرار للمجتمع، وينشأ عن هذا العديد من المفاسد، وهو ما ذكره ابن عاصم فى نصه، كما أن الفتنة والخلاف والفرقة، إذا كان لها أن تلتهم أشياءً مادية فى خزانة الدولة؛ فيكون من الأولى ألا يستقيم النظام الإدارى فى البلاد، فيعانى هو الآخر من التفكك، وعدم تطبيق القواعد والقوانين المعتادة. ولا يخفى على فطنة القارئ الكريم أن ابن عاصم هنا ينتقد بنفسه، ويبدى استياءه من سوء الأوضاع، بما لايترك مجالًا لاستنطاق النص.

سابعًا: التمسح بالدين، واستغلاله للوصول إلى السلطة

هاجم ابن عاصم فى كتابه – وفى أسلوب قصصى شيق – التمسح بالدين واستخدامه كمطية للوصول إلى السلطة والملك؛ وقد بدا هذا واضحًا عند حديثه عن إحدى حوادث الهرطفة والابتداع وهو ما يبدو واضحًا فى حديثه عن قضية الرجل المعروف بيوسف المدجن، وهو الذى ظهرت حركته فى عهد السلطان الأيسر، سلطان ابن عاصم، وينتقد ابن عاصم مسلك هذا الرجل قائلًا عنه: «فقد كان فى ذلك ما يقضى منه العجب من شاهده أو باشره، من رجل لم أعرفه قط ولا فاتحته بكلمة، إلا أنه كان يبدولى من ظاهره أنه بعيد من ترف الحضارة، وعريق فى نسب البداوة، مثل رعاية البهم وإثارة الفلاحة، وما أشبه ذلك، يستظهر مع ذلك السذاجة البارزة فى مسلاخ القحة والاستصحاب لأضعاث من العشب يفرغها

جهلة العوام فى قالب حسن الظن...»[١].

ويشير ابن عاصم إلى حادث مقتله، ويشبهه بوفاة الخليفة هشام المؤيد واختلاف الآراء حوله، ويذكر ما قالت به طائفة فى يوسف المدجن بعد وفاته أنهم «لقوه فى الكهف الفلانى، والغار الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارج عما قريب، فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا...»[٢] وفى قول ابن عاصم ما يشير إلى الهرطقة والابتداع، بيد أنه يذكر ما يعبر عن خطورة هذه القضية بقوله: «فقد كان حالها عظيمًا وخطرها كبيرًا». ويدفعه هذا إلى الإدلاء برأيه فى دولة الموحدين قائلًا: «وهذا النوع الذى استظهر به هذا المدجن من تغطية قصده أولًا للثورة بالصلاح، وإبراز تصرفاته المقضية أخيرًا إلى طلب الملك، فى مسلاخ الانتماء للولاية، هو الذى مُنى به المرابطون من المتسمى بالمهدى القائم بدولة الموحدين، ولذلك كانت هذه الموحدية لا تسامح أحدًا ممن يستظهر بتغيير المنكر فى قالب الديانة»[٣]. وفى قول ابن عاصم هذا ما يشير

---

(١) ابن عاصم: جنة،١: ١٨٦؛ وقد أورد ابن الأزرق هذا الخبر فى بدائعه، مشيرًا إلى أن يوسف المدجن هذا كان يتظاهر بالانخراط فى سلك الصوفية بغية الوصول إلى السلطة. انظر. ابن الأزرق (القاضى أبو عبدالله محمد المتوفى (٨٩٦هـ/ ١٤٦٤م): بدائع السلك فى طبائع الملك، تحقيق: على سامى النشار، بغداد – منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٧، ١: ١٢٠.

(٢) ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٨، ١٨٩؛ ومن المعروف عن الخليفة هشام المؤيد أنه ظهر رجل يشبهه بعد وفاته باثنتين وعشرين سنة يسمى خلف الحصرى، وادعى أنه هو، وبويع له بالخلافة، وقد ذكر ابن حزم هذا تحت قوله: «أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها»، أما عن شخصية الخليفة هشام المؤيد فهو ابن الخليفة الحكم المستنصر، وهو أشهر من أن يُعرف به فى التاريخ الأندلسى. انظر. ابن حزم (أبو محمد على بن سعيد المتوفى (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م): نقط العروس فى تواريخ الخلفاء «رواية الحميدى» تحقيق: شوقى ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج١٣، ج٢، ديسمبر ١٩٥١، ٨٣، ٨٤.

وعن الخليفة هشام المؤيد يمكن الرجوع إلى: ابن عذارى المراكشى: عاش أوائل ق «٨هـ/ ١٤م»: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س كولان و إ. ليفى بروفنسال، بيروت – الدار العربية للكتاب ١٩٨٣، ٢: ٢٥٣ – ٢٥٦؛ ابن عاصم: جنة،١: ١٨٨ حاشية رقم (١) للمحقق وبها كثير من المصادر التاريخية عن هشام المؤيد خشية الإطالة.

(٣) ابن عاصم: جنة، ١: ١٨٩؛ وفى قول ابن عاصم إشارة إلى مهدى الموحدين محمد بن تومرت=

إلى أن مهدى الموحدين ابن تومرت قد اتخذ من الدين ستارًا له للوصول إلى الحكم والسلطة والقضاء على دولة المرابطين؛ والذى يلاحظ أيضا من خلال نص ابن عاصم هذا أنه يبدى تعاطفًا تجاه المرابطين، وينظر إلى ابن تومرت على انه دعى، وينكر لقب المهدى عليه، وفى موطن آخر يعيب على الموحدين استباحتهم للدماء عقب دخولهم مراكش سنة «٥٤١هـ/ ١١٤٦م»(١).

والجدير بالذكر هنا أن ابن عاصم لم يكتف بأسلوبه القصصى، بل يبدى رأيه فى الأحداث بشكل واضح، والحق أنى أتفق معه فيما قاله بشأن دولة المرابطين، وتجاسر ابن تومرت «مهدى الموحدين عليهم» فى حين أن حركته لم تكن سوى محاولة للنيل من دولة المرابطين تحت ستار الدين، وهو ما هاجمه ابن عاصم بشدة.

=المتوفى عام «٥٢٤هـ/ ١١٢٩م » وهو الذى عاب على المرابطين ما أسماه بالتجسيم ووصفهم بالمجسمين، مدعيًا فى ذلك الإصلاح الدينى، ولم يكن قصده سوى هدم الدولة فى عز شبابها، وانظر فى هذا الشأن ما كتبه الباحث باسم. دور أعلام الفكر الصوفى فى تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى خلال القرنين «٥، ٦هـ/ ١١، ١٢م» بحث قيد النشر بحولية كلية الآداب – جامعة بنها – أكتوبر ٢٠١٥، وفيه انتصار لدولة المرابطين وإنصافها من ابن تومرت.

(١) ابن عاصم: جنة، ٢: ٩٣؛ وما ذهب إليه ابن عاصم هنا يتفق مع ما قال به نفر من الباحثين المحدثين من أن الموحدين أقاموا دولتهم على الدم.

انظر. عبدالحليم عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية»، المنصورة – دار الوفاء ودار الصحوة ١٩٨٩، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٤.

خاتمـة

وبعد فهذه مجموعة من انتقادات ابن عاصم، وذكره لسلبيات المجتمع الأندلسى فى عصر سيادة غرناطة، ولعل أهم النتائج التى يمكن استخلاصها من البحث على النحو التالى:

– أن الرجل – وإن لم يكن مؤرخًا فى المقام الأول – يملك حاسة تاريخية لا يمكن إنكارها، وأن التاريخ كان جزءًا من اهتماماته وثقافاته؛ فهو أشبه بما يسمى «عالم الدين – المؤرخ»، أو «الفقيه – المؤرخ»، كماسبق القول.

– أنه كان على وعى كبير بذكره لسلبيات المجتمع فى الأندلس فى عصر سيادة غرناطة، وإننى لم اعتمد على استنطاق نصوصه التاريخية انتقاصا من وعيه بما يذكره

– انه استطاع أن يعبر عن كثير من جوانب السلبيات متمثلة فى ذكره لحالات الاعتقال والنفى، واستخدام الدين كمطية للوصول إلى الهدف المنشود، فضلا على ذكره لمظاهر من فساد الرعية، وتعدد حالات من الاغتراب، والتفكك السياسى، والخلل الاجتماعى، على النحو المذكور فى متن البحث.

– لعل أهم نتيجة يمكن أن يصل إليها البحث هى أن العلة فى الأندلس جاءت من الرؤساء والطبقة الحاكمة، وهو ما قال به أ. د حسين مؤنس رحمه الله[1].

وأخيرًا فقد سبق لى الإشارة أنه كانت لى محاولة سابقة فى الكتابة عن ابن عاصم، وربما كانت محاولة ناقصة أردت أن أتممها بالكتابة عنه مرة أخرى، منقبا عن جوانب جديدة من سلبيات المجتمع الأندلسى فى عصره.

وأدعو الله أن يهيئ لنا عقولًا وأفئدة وآذانًا واعية نستطيع من خلالها الاستفادة من ماضينًا لخدمة الحاضر والمستقبل، بما يعود بالنفع والخير على وطننا وأمتنا... وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) مقدمة تحقيق أخبار العصر، ٢١.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصدر الرئيسى للبحث

ابن عاصم: أبو يحيى محمد بن عاصم ت «٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م».

- جنة الرضا فى التسليم لما قدر الله وقضى، ثلاثة مجلدات، تحقيق: د / صلاح جرار، منشورات الجامعة الأردنية، دار البشير، عمان ١٩٨٩.

ثانيا: المصادر

ابن الأزرق: القاضى أبى عبد الله محمد ت «٨٩٦هـ/ ١٤٦٤م».

- بدائع السلك فى طبائع الملك، ج١، تحقيق: على سامى النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٧.

الإمام البخارى: محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت «٢٥٦هـ/ ٨٧٠م».

صحيح البخارى، تحقيق: طه عبدالرازق سعد، دار الاعتصام ٢٠١١م.

ابن حزم: أبو محمد على بن سعيد ت «٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م».

- نقط العروس فى تواريخ الخلفاء «رواية الحميدى» تحقيق: د. شوقى ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ١٣، ج ٢، ديسمبر ١٩٥١.

الحميرى: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ت «٨٦٦هـ/ ١٤٦١م».

- كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠.

ابن الخطيب: لسان الدين أبى عبدالله محمد ت «٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م».

- الاحاطة فى أخبار غرناطة، مج ١، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط ٢ مكتبة الخانجى ١٩٨١.

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مج ٢، ط١ مكتبة الخانجى ١٩٨١.

- اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربى، ط٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠.

أبو العرب: محمد بن أحمد بن تميم التميمى ت «٣٣٣هـ/ ٩٤٤م».

- كتاب المحن، تحقيق د. يحيى وهيب الجبورى، ط٢ دار الغرب الإسلامى ١٩٨٨.

ابن عذارى المراكشى: عاش أوائل ق «٨هـ/ ١٤م».

- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة. ج. س كولان وإ. ليفى بروفنسال ٢ ط ٣ الدار العربية للكتاب بيروت ١٩٨٣.

ابن القاضى: أبو العباس أحمد محمد المكناسى: ت «١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م».
- درة الحجال فى أسماء الرجال، ج١، تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور، ط١ المكتبة العتيقة، دار التراث ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
القرآن الكريم: طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٠٧هـ.
المقرى: أحمد بن محمد التلمسانى ت «١٠٤١هـ/ ١٦٣١م».
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف البقاعى، ج١، ج٧، ج٨، ط ١ دار الفكر ١٩٨٦.
- أزهار الرياض فى أخبار عياض، ج١، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩.
ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ت «٧١١هـ/ ١٣١١م».
- لسان العرب، مج ٣، أعده: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت دون تاريخ
مؤلف مجهول:
- أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق: د. حسين مؤنس، ط ١ الزهراء للإعلام ١٩٩١ (استفدت من مقدمة تحقيق د. مؤنس فقط)
- النسائى: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب ت «٣٠٣ هـ/ ٩١٥م».
- سنن النسائى المشهور بـ «المجتبى» تحقيق وتعليق: أبو محمد سليمان القاطونى، ط٢ المكتبة التوفيقية ٢٠١٤م
- الهندى: العلامة علاء الدين على المتقى ت «٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م».
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال (١٨ مجلدًا) ج ٦؛ ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكر حيانى، وصححه ووضحه فهارسه: الشيخ: صفوة السقا، ط٥ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
ياقوت الحموى: شهاب الدين أبى عبدالله ت «٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م».
- معجم البلدان، مج ٣، ٥، دار صادر بيروت دون تاريخ.

ثالثا: المراجع العربية

الأهوانى «د. عبدالعزيز»:
- سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ج١، مج ١٦ مايو ١٩٥٤.

حسين مؤنس «د»:
- التاريخ والمؤرخون «دراسة فى علم التاريخ» دار المعارف ١٩٨٤.
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط١ دار ومطابع المستقبل ١٩٨٠.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مدريد ١٩٦٧.
خير الدين الزركلى:
- الأعلام، ج٧، ط٨ دار العلم للملايين ١٩٨٩.
سيدة كاشف «د»:
- مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، الخانجى ١٩٧٦.
شكيب أرسلان «الأمير»:
- رواية آخر بنى سراج للكاتب الفرنسى «الفيكونت درشاتو بريان»، ويليها خلاصة تاريخ الأندلس فى سقوط غرناطة، ويليهما كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.
عادل يحيى عبد المنعم «د»:
- النقد الاجتماعى عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين «ق٣-٩هـ/ ٩- ١٥م» رسالة ماجستير غير منشورة آداب الزقازيق ١٩٩٦.
- دور أعلام الفكر الصوفى فى تدعيم وجود العقيدة الأشعرية ببلاد المغرب الأقصى خلال القرنين ٦٢٥هـ/ ١١، ١٢ م، بحث قيد النشر بمجلة كلية الآداب – جامعة بنها، أكتوبر ٢٠١٥.
عبدالباسط عبدالمعطى «د»:
- اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٨١.
عبدالرحمن على الحجى «د»:
- التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، ط ١ دار الاعتصام ١٩٨٣.
عبدالقادر زمامة:
- أبو الوليد بن الأحمر، الدار البيضاء ١٩٧٨.
عبدالحليم عويس «د»:
- أوراق ذابلة من حضارتنا «دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية» ط ٣ دار الوفاء ودار الصحوة ١٩٨٩.
عبدالله جمال الدين «د»:
- التاريخ الأندلسى «تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجرى»، القاهرة دون تاريخ.

عماد الدين خليل «د»:
- التفسير الإسلامى للتاريخ، ط ٥ دار العلم للملايين ١٩٩١.
قاسم عبده قاسم «د»:
- الرؤية الحضارية للتاريخ، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥.
محمد عبدالله عنان:
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس، ط ٤ مكتبة الخانجى ١٩٨٧.
- وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجرى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، مج ٢، عدد ١-٢ ١٩٥٤.
محمد بن محمد مخلوف:
- شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها على نفقة دار الكتاب العربى، بيروت دون تاريخ.
معجم العلوم الاجتماعية:
- تصدير ومراجعة د. إبراهيم مدكور، إعداد: نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

رابعًا: المراجع المترجمة

- لويس سيكودى لوثينا:
- وثائق عربية غرناطة، منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، ط١ مدريد ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

خامسًا: المراجع الأجنبية

Conde (J. A):
- History of the Dominon of the Arabs Spain.,Vol. 3., Translated by Mrs Jona Foster., London.
Lus Seco De Lucend Paredes:
- Una Hazaña De Ibn Asim Identificada., Al-ndalus., Vol., XVIII Madrid – Granada 1953.
Miguel Alcantra:
- Historai De Granada., T. 3., Granada 1906.
Rachel Arie:
- L'es pagne Mauslmane Au temps des nasrides., "1232- 1422" Paris 1973.